لا يـصـحّ أن يقـال الإنسان خليفة عن الله في أرضه

فهي مقولة باطلة

١٤١١ هـ



صدر الإذن بطبع هذه الرسالة

من المديرية العامة للمطبوعات بوزارة الإعلام

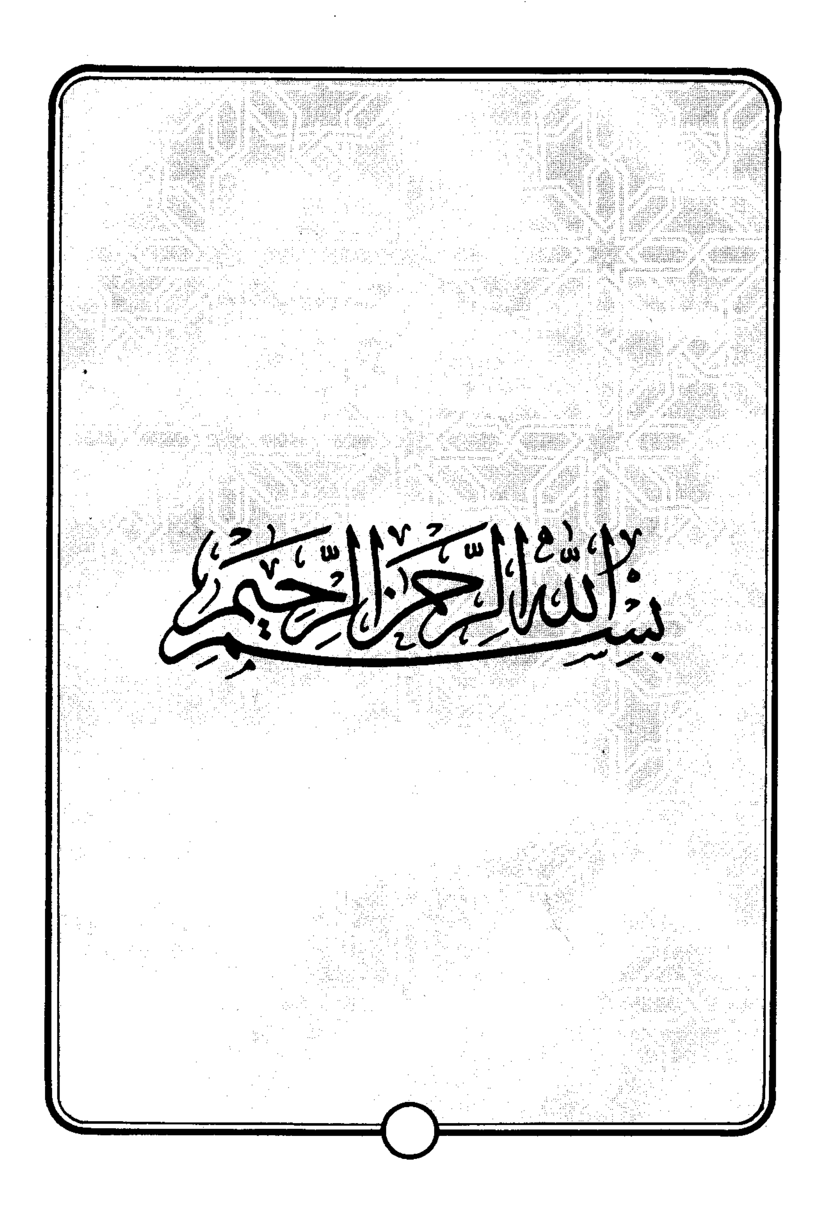
برقم ٦١٣ / ٢ / م وتاريخ ١٤١١/٥/٢١ هـ

لا يصحّ أن يقال الإنسان خليفة عن الله في أرضه

فهي مقولة باطلة

بقلم
عبد الرحمن حسن حبنكه الميداني

١٤١١ هـ ١٩٩١ م


بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الرسالة

الحمد لله العليم الحكيم الوهّاب، الذي بيده ملكوت السماوات والأرض مُسبّب الأسباب، الغنيّ عن كلّ شريك أو معين أو خليفة، إنّما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له: كن فيكون.

والصلاة والسلام على سيدنا ونبيّنا محمد رسول الله الصادق الأمين، المؤيّد بالآيات البينات والذكر الحكيم، سيّد الأولين والآخرين.

وبعد:

فهذه رسالة كتبتُها لبيان بُطْلان المقولة الشائعة «الإنسان خليفة عن الله في أرضه» بسطت فيها بالتحليل العلمّي وجه بطلانها، وعدم صحة إطلاقها لما فيها من

مساس بسلامة العقيدة الإيمانيّة بالله، دون أن يُدرك مطلقوها ما فيها من معنى فاسد لا يجوز قصدُه.

وأقول للذين يصرّون على إطلاقها بعد معرفة الحق ووجه الصواب: ردّدوا معي الدعاء التالي:

اللّهم أرنا الحقّ حقّاً وارزقْنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه. ووفقنا لما تحبّه وترضاه يا ربّ العالمين.

مكة المكرمة في غرة ذي الحجة ١٤١٠ هجرية

عبد الرحمن حبنّكه الميداني

مقولة «الإنسان خليفة عن الله في أرضه»

مقولة باطلة

(١)

مقدمة عامة

انطلقت مقولة: «الإنسان خليفة عن الله في أرضه» دون تبصُّر بمعناها، ولا تفكّر في دلالاتها، ثمّ راجت رواجاً واسعاً، حتى غدت من المسلَّمات لدى الكثيرين من أهل الفكر، وصارت على ألسنة كثير من المتحدّثين بمثابة القضايا الأوّلية من قضايا الفكر الديني.

ونجدها فيما كتب الشيخ السيد رشيد رضا، والأستاذ المودودي، والشهيد سيّد قطب، وآخرين كثيرين، حتّى أخذت ألسنة بعض العلماء المنهجيّين تطلقها اتّباعاً وتقليداً، دون بحث عن جذور فكرتها، ودون بحث عن

مصدرها وأسانيدها النصيّة أو العقلّية المنطقيّة، وتلقفها بعض الاقتصاديّين فاعتبروها من القضايا الأساسيّة التي يَبْنُون عليها كثيراً من بحوثهم في الاقتصاد.

إنّها مقولة برّاقة في ظاهرها، تُعْجِبُ غُرور الإنسان، ولكنّها باطلة في حقيقتها، وهي تتعارض مع أسس مفاهيم العقيدة الإسلامية.

(٢)
البيان التحليلي

إنّ الاستخلاف يتضمّن معنى تفويض المستَخْلِفِ لخليفته فيما هو من خصائصه، فادّعاء أنّ الله جعل الإنسان خليفة عنه في أرضه، وهي ملكه سبحانه، أو في الأموال وهو الذي له ما في السماوات والأرض، ادّعاء يتضمّن أنّ الله جعله خليفة عنه ضمن واحد أو أكثر من الاحتمالات التاليات بتفويض منه:

الاحتمال الأول: التفويض في الخلق.

الاحتمال الثاني: التفويض في الحكم والأمر والنّهي.

الاحتمال الثالث: التفويض في العمل والتصرّفات في الكائنات أو في الأموال.

التفويض: هو إعطاء حقّ التصرّف دون محاسبة ولا جزاء، ودون مراجعة ولا نقض، والأمير أو الرئيس أو الملك حينما يستخلف خليفة عنه فإنّه يفوّضه في التصرّف بما هو من خصائصه كلّها أو بعضها وتكون تصرّفات الخليفة نافذة، دون أن يتابعه عليها بالنقض أو بالمحاسبة أو الجزاء، والمرأة حينما تفوّض ولي أمرها في زواجها أو طلاقها فإنّها تعطيه حق التصرّف عنها.

والخليفة وكيل كالأصيل، فلا يحاسب الوكيل على تصرّفاته التي أُعْطِيَ فيها حقّ التصرّف عن موكّله ضمن الصلاحيات الممنوحة له، ولولا الثقة بالوكيل في التصرّف لم يوكّله موكّله.

● أمّا التفويض في الخلق، فمن المقرّرات في أوّليّات العقيدة الإسلامية وبَدَهِيّاتها أنّ الخلْقَ كُلّه لله وحده، وأنّ الله عزّ وجلّ لم يفوّض أحداً بأن يخلُق شيئاً، فليس لله عزّ وجلّ خليفة عنه في الخلق.

وأمّا معجزات عيسى عليه السلام في إحيائه للموتى، ونفخه في الطين فيكون طيراً، فلم يكن شيءٌ من ذلك تفويضاً في الخلق، وإنّما كان من قبيل المعجزات التي يجريها الله على يَدِ رسوله، ورسُولُه لم يكن يباشر أسبابها إلّا بإذن من الله عزّ وجلّ، وهو ما بيَّنه الله في سورة (المائدة/٥) بقوله تعالى:

﴿إِذْ قَالَ اللهُ يَا عِيسَىٰ ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ(١١٠)﴾.

فإجْرَاءُ كُـلِّ مَعْجِزَةٍ خَـارِقَةٍ مِنْ هٰـذِهِ المعجزات الخوارق لم يكن يَتِمُّ إلَّا بإذْنِ الله عَزَّ وجلّ.

وإذا كان الأمر كذلك فلا تفويض في الخلْق مطلقاً.

● وأمّا التفويض في الحكم والأمر والنهي عن الله عزّ وجلّ فله عقلاً وشرعاً قيود، وذلك لأنّ الحاكميّة لله وحده، فمن له الخلق هو الذي له الأمر قال الله عزّ وجل في سورة [الأعراف/٧]:

﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤)﴾

وكون الحاكميّة لله وحده هـو من عناصر توحيـد الألوهيّة له.

والرسول مبلّغ عن الله شرائعه لعباده، وحين يعطي الله عزّ وجلّ رسوله تفويضاً في الاجتهاد لاستنباط أحكام الله، فإنّه يُتابعه بالتعديل والتصحيح إذا أخطأ، لأنّ الناس يؤمنون بأنّ ما يحكم به الرسول هو حكم الله، وما دام موجوداً فالوحي لم ينقطع، والمتابعة قائمة، فما يحكم به الرسول ﷺ اجتهاداً منه، ويُقِرُّه الله عليه دون تعديل أو

تبديل فهو حكم الله.

إذن: فالتفويض في الأحكام لا يكون إلّا لنبيٍّ معصوم عن مخالفة شرع الله ومراداته في التكاليف، ولمّا لم يكن معصوماً عن الخطأ في الاجتهاد كان مُتَابعاً بالتصحيح والتعديل والعتاب أحياناً، كما حصل للرسول في أسرى بدر.

ولا يصلُح الناس بشكل عامٍّ لمثل هذا التفويض، ففيهم العصاة، وفيهم الكفرة والفجرة، وإذا أخطأ صالحوهم في اجتهاداتهم لم نجد وحياً يُصحّحُها لهم، ويُبيّن فيها حكم الله، لانقطاع الوحي، وانتهاء النُّبُوات.

وما تركه الله للنّاس يُنَظِّمون فيه ما هو الأيسر والأصلح لهم، فقد أباح الله لهم أن ينظموا فيه ما يشاءُون، والحكمُ الدينيّ فيه هو حكم الإباحة من الله عزّ وجل، وليس تفويضاً، وإذا كان من الأمور الجماعيّة فأمرهم فيه شُورىٰ بينهم، والحكم الدينيّ فيه هو العملُ بما تُقَرِّرُه أكثريَّةُ أهل الحلّ والعقد من المؤمنين المسلمين، بحسب

اختصاصاتهم، وأمْرُ وليِّ الأمر في غير معصية الله ورسُوله تجب طاعته بحكم الله.

وقد علّمنا الرّسول ﷺ أن لا نُنْزِلَ الناس على حكم الله في القضايا التي أباح الله لنا فيها أن نختار ما هو الأصلح في اجتهاداتنا، لأنّنا لا نَدْري أنُصِيبُ فيهم حُكْمَ الله أولاً؟.

ففي حديث «بُرَيدة» الذي رواه مسلم قال:

كانَ رسول الله ﷺ إذا أمَّر أمِيراً على جَيْشٍ أو سَرِيَّةٍ أوصاه بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيراً.

وجاء في هذه الوصايا ما يلي:

﴿وإذا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَىٰ حُكْمِ اللهِ فَلَا تُنْزِلْهُمْ، وَلَكِنْ أَنْـزِلْهُمْ عَلَىٰ حُكْمِكَ، فَـإِنَّكَ لَا تَدْرِي: أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهُ أم لا؟﴾.

ومن هذا يتبيّن لكلّ ذي فكرٍ أنّ التفويض في الأحكام لغير المعصوم الْمُتَابَعِ بالوحْي الرّباني غيرُ مقبولٍ شرعاً.

وقد أبان الرسول ﷺ معنى اتّخاذ اليهود والنصارى أحبارَهُمْ ورُهْبانَهُمْ أرْباباً من دون الله، في قول الله عزّ وجلّ في سُورَةِ [التوبة/٩]:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٣١).

جواباً لعديّ بن حاتم الطائي، لمّا قال للرسول: إنّهم لم يَعْبُدوهُم فقال الرسول ﷺ له:

«بَلَىٰ، إنَّهُمْ حَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الْحَلاَلَ، وأَحَلُّوا لَهُمُ الْحَرَامَ فاتَّبَعُوهم، فذلك عبادتُهُمْ إيَّاهُمْ».

هذا شأن التفويض في الأحكام، إنْ يَكُنْ فهو لا يكون إلاّ لرسول معصوم، مع متابعته بالوحي إذا أخطأ.

● وأمّا التفويضُ في العمل والتصرّفات، فهو يتضمّن معنى إباحة كلّ تصرُّفٍ وَعَمَلٍ يصْدُرُ عن الإنسان، وهذا خلاف الواقع تماماً، ولا يقبل به ذو فكر، فضلاً عن مؤمن بالله مُسْلِمٍ له.

إنْ الإنسان موضوع في الحياة الدنيا موضع التكليف والمسؤوليّة، والمكلَّفُ مأمُورٌ تجبُ عليه الطاعة، وهو مسؤول عن عمله، وسيجازى عليه، فمن يعمل مثقال ذرّة خيراً يره، ومن يعمل مثقال ذَرَّةٍ شرّاً يَرَه.

إنّ الإنسانَ عَبْدٌ مُمْتَحَنٌ مُبْتَلَى في هذه الحياة الدنيا، وليس خليفةً عن الله عزّ وجلّ في أرضه، سُبْحانَه، لقد تنزّه عن اتّخاذ الخلفاء عنه، وتعالى عن ذلك علوّاً كبيراً.

ولِتحقيق الامتحان في ظروف هذه الحياة الدنيا بَيْنَ نَجْدَيِ الخير والشرّ، في الفكر والاعتقادِ والنيّاتِ وأعْمَالِ القلْبِ والجسد، سخّر الله للإنسانِ أشياءَ في ذاته وأشياءَ في الكون من حوله، ومكَّنَهُ بقضائه وقدَرِهِ من توجيه إرادته ومُباشرةِ الأسباب لتحقيق ما يريد، فيُتِمُّ اللهُ له ما يُرِيدُ من خلال الْمُسَخَّرَاتِ له، ما لم يكن لله عزّ وجلّ قضاءَ وقدَرٌ على خلاف ذلك، فتَتَحقَّقُ النَّتائِجُ بَخَلْقِ الله، ويُحَاسِبُ الله الإنسانَ ويُجَازيه على اختياراته ومُبَاشرته للأسباب التي جعلها الله مُسَخَّرَةً لَهُ بتسخير مُتَتَابع مع كلّ أجزاءِ الزمَنِ

الصغرى، ونختصر هذا الشرح بعنوان «التمكين القدري».

ونستطيع أن نُشَبِّه هذا التسخير الذي يتمّ بقضاء الله وقَدره تِبَاعاً، بالسّيّارات الكَهرابائية في ساحات ألعاب الأطفال، يركبها الأطفال، فتسير بالطاقة الكهربائية التي يُمِدُّ بها المشرف على الساحة ولا يملك ركّابُها إلاّ حركة المِقْوَدِ في التوجيه، وحين لا يريد المشرف على الساحة تحرُّك سيارةٍ منها أَوْقَفَها من جهته بقطع طاقة التحريك عنها، فهو المحرّك المسخِّر، ثم تكون المحاسبة على التوجيه المطابق أو المخالف لتعليمات المشرف الممتحن.

إنّ هذا التمكين القدري للإنسان من العمل فيما سخّر الله له ليَبْلُوَهَ في ظروف هذه الحياة الدنيا ليس تفويضاً ولا خلافةً عن الله، فالله لم يستخلف أحداً عنه في خلقه.

كيف يستخلف عنه وهو الذي بيده ملكوت كلّ شيءٍ؟ وقد قال سبحان في سورة [يس/٣٦]:

﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ: كُنْ فَيَكُونُ(٨٢) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(٨٣)﴾

أو ليست المسخّراتُ للإنسان داخلةً في عموم كلّ شيءٍ، وهذه الآية تبيّن أن ملكوتَ كلّ شيءٍ بيد الله (أي: مُلْكهُ التامَ والتصرّف فيه على مراده سبحانه).

فأيْنَ الخلافَةُ عن الله، تعالى الله عن ذلك؟.

هذا ما عليه عقيدة السلف الصالح، وعلماء هذه الأمّة المسلمة.

روي عن سيدنا علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - في مسألة أعمال العباد بين الجبر والاختيار قولُه[1]:

«أَمَرَ اللهُ تَعَالَى بِالْخَيْرِ تَخْيِيراً، وَنَهَى عَنِ الشَّرِّ تَحْذِيراً، وَلَمْ يُعْصَ مَغْلُوباً، وَلَمْ يُطَعْ مُكْرِهاً، وَلَمْ يُمَلِّكْ تَفْوِيضاً، فَهُوَ أَمْرٌ بَيْنَ أَمْرَيْنِ، لاَ جَبْرَ وَلاَ تَفْوِيضَ والاسْتِطَاعَةُ تُمْلَكُ بِاللهِ الَّذِي إِنْ شَاءَ مَلَّكَ»..

فَأَبَانَ - رضي الله عنه - أَنَّه لاَ جَبْرَ وَلاَ تَفْوِيضَ، فمِنْ أَيْنَ يكونُ الإنسانُ خليفةً عن الله في أرضه؟

---

(١) أنظر شرح المقاصد ج (٢) الصفحة (١٣٣) والاتحاف شرح الإحياء ج (٢) الصفحة (٥٦).

يضاف إلى ما سبق أنّ مفهوم الخليفة أعلى شأناً من مفهوم النبيّ ومن مفهوم الرّسول، فالنبيُّ مُنَبَّأٌ عن علومٍ رَبّانِيّةٍ بالوحي، والرسولُ مكلّف أن يبلغ رسالة ربّه، وقد قام دليلُ العقل ودليل الشرع على وجوب كون الرسول معصوماً عن المعاصي والمخالفات التي تجرح كمال مرتبة التقوى، لئلا يكذب على الله في بلاغاته، ولئلا يكون أسوةً غير حسنةٍ في أعماله.

ولقد جعل الله عزّ وجلّ مع الرُّسُل رَصَداً من الملائكة، يُتابعونهم، ليَعْلَمَ أن قد أبلغوا رسالات ربّهم.

وفي بيان هذا الإجراء الرّبّاني قال الله عزّ وجلّ في سورة [الجن/٧٢].

﴿عالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُول فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَداً (٢٧) لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاَتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً (٢٨)﴾.

فإذا كان الرسولُ كذلِكَ، فكيفَ بالخليفة الذي تتضمّن مُهِمَّتُه تفويضاً عَمّنْ استخلفه، ولو في أدنى

الأمور؟. إنّ أدنى ما يشترط فيه بداهةً العصمةُ عما يُخالفُ التصرُّفات الحكيمة للمستَخلِف.

لو ادّعى واحدٌ من الناس أنه رسول الله (أي: حامل رَسَالة يبلّغها عن الله) دون أن يأتي بآيةٍ معجزة تشهد له بصدق دعواه لقلنا: إنه يفتري على الله الكذب، وهو يستحق القتل فكيف بمن يدّعي أنه خليفة عن الله، والخلافة عن الله أعلى منزلةً من حَمْل رسالة عن الله.

أفيقالُ بعد هذا: إنّ الإنسان على وجه العموم خليفة عن الله في أرضه وهل يَسُدُّ ثُغرات الإِشْكَالاَتِ الكثيرة أن نُضيف إلى ذلك عبارة: لإقامة شرع الله، وعمران الأرض على منهج الله؟ مع أنّ الله عزّ وجلّ قد قال في سورة [يوسف/١٢]:

﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)﴾.

فكيف يَصْلُحون لمثل هذه الخلافة؟!. وكَيْفَ يَسْتخلفُهُمُ الله عنه وهو عزّ وجلّ عليم حكيم؟!

ثمّ إذا كان الله بحكمته لا يجعل رسالته إلاّ حَيْثُ

تُوجد الأهليّة الكامل لحمل رسالته، وهي رسالة تبليغ وأسوة حسنة، فقال الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام/٦]:

﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ. . (١٢٤)﴾.

أفلا يكون جعل خليفة عنه مثل ذلك لو شاء أن يستخلف؟!

إنّ الله عزّ وجلّ لو شاء أن يجعل في الأرض خليفة عنه لاختار واصطفى من هو أهلٌ لمثل هذه الخلافة، ولم يجعل الأمر عامّاً لكلّ ذوي الإرادات الحرّة، الذين مكّنَهُمْ من طاعته، ومن معصيته، حتّى من الكفر به، ليمتحنهم، ثمّ ليحاسبهم، وليجازيهم على أعمالهم.

(٣)

الخلافة فيها معنى الوكالة

والخلافة عن الله فيها معنى التوكيل والإنابة، والوكيل هو الذي يُعْطَى حقّ التصرّف فيما جُعِلَ وكيلاً عليه من قِبَلِ صاحب الحقّ، وإنّ الذي يُعطى حقّ التصرّف لا يكون مسؤولاً عن تصرّفاته التي يمنح فيها هذا الحقّ، إنما يكون مسؤولاً عن التقصير والخيانة.

وقد دلّتنا النصوص الدينيّة على أنّ الله عزّ وجلّ هو الوكيل على كلّ شيء، وبيّن الله لرسوله أنّه ليس وكيلاً على الناس عن الله، وإنما هو رسول مبلّغٌ فقط، وإذا كان الرسول محمد ﷺ ـ وهو خير خلق الله ـ ليس وكيلاً على الناس عن الله، فإنّ أحداً من بعده لا يصلحُ لأن يكون عن الله وكيلاً.

الأدلة

(١) قال الله عزّ وجلّ لرسوله في سورة (هود/١١ مصحف/٥٢ نزول):

﴿إنّما أَنْتَ نَذِيرٌ واللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٢)﴾.

أي: ما أنت يا محمّد إلاّ مبلّغ نذير، ولستَ وكيلاً على الناس، إنّما الوكيل على العباد الله وحده، فهو المتصرّف عن الكائنات فيما جعله الله لها، وهو ذو السلطان المهيمن على كلّ شيء.

(٢) وقال الله عز وجلّ في سورة [الزمر/ ٣٩ مصحف / ٥٩ نزول]:

﴿اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (٦٢)﴾.

فهو سبحانه وتعالى ذو السلطان المطلق على كلّ شيء ، وبعد خلقه تعالى للأشياء، فهو الوكيل المتصرف بأمورها، فيُسبّبُ لها الأسباب، ويدفع عنها الموانع، ويمدّها بما يحتاج إليه وجُودُها وبقاؤها، وكم من أعمال لا نستطيع إحصاءها يقوم الله عنّا فيها، ولولا قيامه سبحانه بها عنّا لَمَا استمرّ وجونا لحظة واحدة.

(٣) وأمر الله عزّ وجلّ رسوله بقوله فى سورة [يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول]:

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّما يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيل (١٠٨)﴾.

وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ : أي . فأنا لا أغني عنكم من الله شيئاً، لأنني لَسْتُ وكيلاً مفوّضاً، وإنّما أنَا مُبَلِّغٌ رِسالة ربّي.

(٤) ثم أنزل الله عزّ وجلّ في سورة [الأنعام /٦ مصحف/٥٥ نزول]:

﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ (١٠٢)﴾.

وقوله عزّ وجلّ فيها لرسوله:

﴿وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظاً وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيل (١٠٧)﴾.

أي: لست يا محمّد مسؤولاً عن تحويلهم من الشرك إلى التوحيد، لأنّ الله جعل لهم إراداتٍ حرَّةً ليمتحنهم، ولو شاء لسلبهم هذه الإرادات الحرّة وحينئذٍ يجعلهم مجبورين على الإيمان الصحيح، فلا يكونون مشركين.

٥ - ثم أنزل الله على رسوله قوله في سورة [الزمر/٣٩ مصحف/٥٩ نزول]:

﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ لِلنَّاسِ بِالْحَقِّ فَمَنِ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٤١)﴾.

٦ ـ ثُمّ أنزل الله على رسوله قوله في سورة [الشورىٰ/٤٢ مصحف/٦٢ نزول):

﴿والَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ اللهُ حَفِيظٌ عَلَيْهِمْ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ (٦)﴾.

أي: لست مسؤولاً عن المحافظة عليهم لمنعهم من الضلال إذا اختاروا لأنفسهم ذلك [فمن اهتدى فلنفسه ومن ضلّ فإنّما يضلّ عليها].

ولست مسؤولاً عن مراقبة أعمالهم وتسجيلها [اللهُ حفيظ عليهم].

وهكذا دلّت النصوص القرآنية علىٰ أنّ الرسول ليس وكيلاً على الناس، بأيّ معنى من معاني الوكالة، أفيكون خليفة عن الله، والخلافة أوسع في صلاحيّاتها من الوكالة؟!

وهذا كلّه بالنسبة إلى رسول الله محمّد ﷺ، أفضلِ خلق الله، وخاتمِ رسُله، فكيف يكون حال سائر الناس، وفيهم الكفرة الفجرة؟!

(٤)

ما يُنتج الناس من صناعات ومبتكرات هو من خلق الله

أمّا شبهة الصناعات والمبتكـرات الإنسانيـة، التي بسببها تصوّر بعض أهل الفكر أنّ إنتاج الإنسان لها قد كان بمقتضى كونه خليفة عن الله في أرضه، فقد أبان الله عزّ وجلّ أنّه هو خالقها، فالناس ليسوا خلفاء عنه في إيجادها، وذلك لأنّهُ هو الذي وضع في الأشياء خصائصها وقوانينها، وهو الذي ألْهَمَ الأفكار أن تتوصّل إليها، وهو الذي أعطى الإنسان الحياة والقوة، وأمدّه بالعون، حتى ظهرت مصنوعةً مبتكرة، فهي خلق من خلق الله.

الدليل:

١ ـ يقـول الله عـزّ وجـلّ في سـورة [يس/٣٦ مصحف/٤١ نزول]:

﴿وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ (٤١) وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ (٤٢)﴾.

٢ ـ ويقول الله عزّ وجلّ في سورة [الزخرف/٤٣ مصحف /٦٣ نزول):

﴿والّذي خَلَقَ الأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ والأَنْعَامِ ما تَرْكَبُون (١٢)﴾.

وظاهر أن الفلك صناعة إنسانية، وهي في الحقيقة خلقٌ من خلق الله.

(٥)

التَّسخير لَيْسَ تفويضاً ولا توكيلاً ولا خلافةً عن الله

أمّا تسخير ما في الأرض وما في السماء للإنسان، ومنه تسخير الأموال على اختلاف أصنافها فليس تفويضاً له في أن يتصرَّف فيها كما يشاء، لأنّ التفويض كما سبق بيانه، هو إعطاء حقّ التصرّف دون محاسبة ولا جزاء، ولا مسؤولية فيما أعطى فيه التفويض ودون مراجعة ولا نقض، والإنسان موضوع موضع الامتحان فيما سخّر الله له من أشياء، في ذاته أو في الكون من حوله، وهو مُكَلَّف، ومتابَعٌ بالمحاسبة والجزاء.

والتسخيرُ تمكين بقضاء الله وقدره من توجيه المسخّرات في طاعةِ الله أو في معصيته، والله هو الذي يُجْرِي المسخّرات بقدرته على وفق اختيار الإنسان، إذا لم يكن لله قضاء وقدر على خلافه، كما سبق بيانه، وهذا التسخير واقع في دائرة الامتحان، ومادَّةُ هذا الامتحان التكليف بالأوامر والنواهي، وساحته المسخّرات للإرادة الحرّة، وعقبتُه أهواء النفوس وشهواتها ونزعاتها ومطالبها وغرائزها.

ومع التسخير التَّسَبِيِّ لا يتمُّ في الكون إيجاباً ولا سلباً إلّا ما يقضي الله عزّ وجلّ به، فما كان لله فيه قضاء وقدر أَذِنَ سبحانه بوقوعه، وجرَت المسخّرات بقضاء الله وقَدَره لتحقيق نتائج إرادات المكلّفين، وما لم يكن لله فيه قضاء وقدر لم يأذن الله سبحانه بوقوعه، وقامت العقبات بخلق الله وقضائه وقدره لمنع حصول نتائج إرادات المكلّفين، فلم تؤثّر الأسباب المسخّرة في تحقيق مرادات الناس، وإنّما الذي يتحقّق هو مراد الله عزّ وجلّ، بأسباب أخرىٰ، أو بخلْقٍ خارجٍ عن نظام الأسباب.

ولذلك نلاحظ أنّ النصوص القرآنيّة الكثيرة قد ربطت تحقيق نتائج أعمال المخلوقين السببيّة بإذن الله، بما في ذلك أعمال الملائكة، وأعمال المرسلين في إجراء الآيات الخوارق.

فالرسول لا يأتي بآية إلّا بإذن الله، وجبريلُ لا ينزل بالقرآن على قلب محمّد ﷺ إلّا بإذن الله، والسِّحْر لا يضرّ أحداً إلّا بإذن الله، وانتصارُ فِئَةٍ من الناس على فئة أُخرى لا يتمُّ إلّا بإذن الله، وكلُّ نفسٍ لا تموتُ إلّا بإذن الله، حتّى البلدُ الطيّب إنما يخرج نباته بإذن رَبّه.

فالقوانين الثابتة، والأسباب الخاضعة للسُّنن الدائمة لا تُؤدّي أعمالها الطبيعيّة إلّا بإذن الله.

إذَنْ: فلا توكيل، ولا تفويض، ولا خلافة عن الله.

والنصوص القرآنيّة الدّالة على هذا كثيرة، ومنها النصوص التالية:

١ ـ قال الله عزّ وجلّ في سورة (الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول) بشأن البلد الطيّب الذي يخرج نباته بإذن ربّه:

﴿والْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الأَيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُون (٥٨)﴾.

٢ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة [إبراهيم/١٤ مصحف/٧٢ نزول] بشأن إخراج الرسول الناسَ بهداية القرآن من الظلمات إلى النور بإذْن ربّهم:

﴿الَر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١)﴾.

٣ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها بشأن إتيان الرسُل بالآيات المعجزات التي تتضمّن حُجَّةً من الله ذَاتَ سُلْطانٍ، لإثبات صدق رسالاتهم، وأنّهم لا يأتون بشيءٍ منها إلاّ بإذن الله، فيبيّن مقالة الرُّسُل لأقوامهم طالبي الآيات ذاتِ السّلطان المبين:

﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ: إِنْ نَحْنُ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون (١١)﴾.

٤ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً بشأن الشجرة الطيّبة الّتِي تُؤْتي ثمراتها كلّ حين بإذن ربّها:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثلاً: كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُها ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤) تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ الله الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥)﴾.

٥ ـ وقال الله تعالى بشأن جبريل عليه السلام وأنّه لا ينزل على قلب محمّد إلاّ بإذن الله في سورة [البقرة/٢ مصحف/٨٧ نزول]:

﴿قُلْ: مَنْ كَانَ عَدُوّاً لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللهِ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٩٧)﴾.

٦ ـ وقال الله عزّ وجلّ في سورة البقرة أيضاً، بشأن السَّحَرَةِ الّذِينَ يَتَعَلَّمُونَ مِنَ السّحر ما يُفرّقون به بين المرء وزوجه:

﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّين بِهِ مِنْ أَحَدٍ إلاّ بِإذْنِ اللهِ (١٠٢)﴾.

٧ ـ وقال الله عزّ وجلّ فيها أيضاً في حكاية قصّة

طالوت وجالوت:

﴿قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا اللهِ كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ واللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا: رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وانْصُرْنَا على الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللهِ وَقَتَلَ داوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ والْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ. . . (٢٥١)﴾.

٨ ـ وقال الله عزّ وجلّ بشأن موْتِ الأنفس في سورة [آل عمران/ ٣ مصحف/ ٨٩ نزول].

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إلَّا بِإِذْنِ اللهِ كِتَاباً مُؤَجَّلاً. . . (١٤٥)﴾.

٩ ـ وقال تعالى فيها أيضاً بشأن ما أصاب المسلمين في غزوة أحد:

﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِين (١٦٦)﴾.

١٠ ـ وَقال تعالى في سورة [الرعد/١٣ مصحف/٩٦ نزول]:

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨)﴾.

فَكُلُّ حَدَثٍ يَحْدُثُ ضمن نظام الأسباب والمسبّبات، وضمن سنن الله الثابتة، إنّما يحدُث بإذن الله، فلا توكيل، ولا تفويض، ولا خلافة عن الله.

(٦)
فكرة الخلافة عن الله مزلق خطير

وفكرة خلافة الإنسان عن الله في الأرض فكرةٌ خطيرة، تزحف منها تعميمات تجعل الأصلح لعمران الأرض عمراناً حضاريّاً مادّياً هم المؤهلين ليكونوا خلفاء الله في أرضه، ولو كانوا كافرين به، جاحدين وُجُودَه.

وهذه الفكرة تنتقل إلى إشاعة وجوب طاعة الدول الحضاريّة المستعمر المتفوّقة في مجالات الصناعة والقوة والعلوم المادّية، ووجوب عدم مقاومتها لأنّ رجالها هم المؤهّلون لعمران الأرض عمراناً حضاريّاً مادّياً، فهم خلفاء الله في أرضه، الذين تجب طاعتهم، بِمُقْتَضَى فكرة

استخلاف الأصلح للعمران، والأعرف به، والأقدر عليه، لو كان الاستخلاف عن الله أمراً واقعاً فعلاً.

ومن هذه النقطة المزلقيّة الخطيرة زحف «ميزا غلام أحمد القادياني» عميل الإنجليز في الهند، والعامل في خدمتهم، والناصر لقضاياهم، فأسقط الجهاد في سبيل الله، وزعم أنّ الإنكليز هم خلفاء الله في أرضه، فلا يجوز قتالهم، ولا تجوز مقاومتهم لإخراجهم، بل تجبُ طاعتهم، والاستكانة لحكمهم وسلطانهم.

(٧)

هل الإنسان مُسْتَخْلَفُ في المال عن الله؟

يقول بعض الاقتصاديين: إنّه حتّى مع التسليم بأنّه لا يَصِحُّ وصف الإنسان بأنّه خليفة عن الله في أرضه، فإنّ هذا لا يَنْفي فكرةَ أنّ الإنسان خليفة في المال عن الله، لأنّ الله سبحانه هو المالك الحقيقي، وقد صرّح في القرآن المجيد بأنّه استخلف الإنسان في المال، كما في قوله تعالى: ﴿وأنفقوا ممّا جعلكم مستخلفين فيه﴾.

وأقول: إنّ فكرة الاستخلاف عن الله هي من قضايا العقيدة في الإسلام وليست من قضايا الأحكام الفقهيّة الفرعيّة في الاقتصاد، ومجانَبَةُ الصواب فيها تؤثر على العقيدة الإيمانيّة، ومِنْ هنا تأتي خُطُورةُ تركها للاجتهادات الفرديّة المنقوضة بالأدلة القاطعة التي لا ردّ لها، وإذا أخطأ مفسّر أو ناقلٌ أو باحثٌ لم يكن حجّةً على الحقيقة، وكم من أخطاء تسري دون تحليل ولا تمحيص فيتولّد عنها مخاطر تَنْقُض بعض عناصر الإيمان، وهذا عن علماء العقيدة الإسلاميّة قد يفضي إلى الكفر.

وأقول أيضاً: إنّ الأرض كلّها بكل ما فيها هي ملكٌ لله عزّ وجلّ، وكلُّ ما فيها من نبات وماء وحيوان وتراب ومعادن وغير ذلك أموال، ذوات قيم ماليّة، فإذا قُلْنا: إنّ الإنسان مُسْتَخْلَفٌ عن الله في المال كان هذا القول مساوياً لقولنا: إنّ الإنسان مستخلف عن الله في أرضه، ونعود إلى حيث بدأنا ولم نفعل إلاّ تغييراً في اللفظ.

وأمّا قول الله عزّ وجلّ في سورة [الحديد/٥٧]:

﴿وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فِيهِ... (٧)﴾.

فهو كسائر النصوص التي جاء فيها استخلاف الناس في الأرض. إنّ الله عزّ وجلّ لم يقُلْ في واحدٍ منها ما يدُلُّ على أنّ الإنسان خليفة عن الله، والفرق كبير بين كون الإنسان خليفة عن الله في الأرض أو في المال، وبين كون الله استخلفه بمعنى أنّه جعله خليفة عن مالك سابق من المخلوقات، فوارثُ المالِ عن أبيه مثلاً هو خليفة عنه في امتلاك المال، والله هو الذي استخلفه بقضائه وقدره وأحكام شريعته، وغانِمُو الأموال والبلاد والمساكن في الحرب، هم خلفاء عمّن كانوا يملكونها، والله هو الذي استخلفهم بقضائه وقدره وتمكينه إيّاهم من الانتصار على أعدائهم.

وفي هذا يُقال: إنّهم مستَخْلفُون في الأموال والأرض والمساكن عن مالكين سابقين استخلافاً ناشئاً من الله، أي: من أمره المستند إلى قضائه وقدره، لا مستخلفون في ذلك عن الله سبحانه وتعالى، لأنّ الله ما زال ولا يزال مالكاً لها، وهو الذي يُسَخِّرها لعباده ضمن قوانين التسخير، ولم يستَخْلِفِ اللهُ عنْهُ فِيها أحداً.

ومن هنا بدأت غلطة تفسير النصوص، بين كـون الإنسان مُسْتَخَلفاً من الله (أي: من أمره المستنِد إلى قضائه وقدره) عن مالكٍ أو منتفع سابق، وبين كونه مستخلفاً عن الله، وخليفة في المال أو في الأرض عن الله.

فأمر الله قد جعل الوارث خليفةً عن مُوَرِّثه، وأمْرُ الله قد جعل الأمم اللاحقة خلفاء في الأرض وفي الأموال عن الأمم السابقة، ولم يجعلها خُلفاء عنه، لأنّه لا يزال دواماً بيده ملكوتُ كلّ شيء، وبيده التصرُّفُ في كلّ شيء، وهو الذي يُسخِّرُ لعباده الأشيا، ومنها الأموال وسيأتي مزيد تفصيل بالأدلة القرآنيّة، إن شاء الله.

(٨)
فكرة خلافة الإنسان عن الله بدعة محدثة

إنّ فكرة خلافة الإنسان عن الله بدعةٌ محدثَةٌ من بدع الأفكار في الإسلام، لم يَقُلْ بها أحدٌ من السلف، وليس لها سَنَدٌ من نصٍ شرعي، وقواعِدُ العقيدة الإسلامية النصّيَّة والعقليّة تَرْفُضُها.

جُلُّ ما تعتمد عليه تأويلٌ فاسد، ثمّ شاعت واستهوت كثيراً من النّاس، وتلامعت ألوانُها في نظر الكثيرين، ومنهم بعض قادة الدعوة إلى الإسلام، ورأَوْا أنَّهم يستحثُّون بها الضمير الإنسانيّ لالتزام منهج الله، وتطبيق أحكامه وشرائعه.

وقصة ذلك أنّ الطبري ـ رحمه الله ـ ذكر رأياً في تفسير قول الله عزّ وجلّ في سورة [البقرة/٢]:

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ: إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً. قَالُوا: أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟. قَالَ: إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٣٠)﴾.

وَمُفادُ هذا الرأي أنّ آدم عليه السلام ومن هو مثله من الأنبياء والرسُل خليفةٌ من الله في أن يحكُمُ بحكْمِ الله بين بنيه الذين سيوجد منهم من يُفْسِدُ في الأرض، ويسفك الدّماء.

وآدم بعد هبوطه من الجنّة وتوبته اجتباه الله بالنبوّة،

فصار نبيّاً معصوماً، والنبيُّ المعصوم أهل لأن يستخلف في أن يحكُمَ بحكم الله، إنْ شاء الله ذلك.

ويوجد رأيان آخران في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جاعِلٌ في الأرض خليفة﴾ ذكرهما الطبريُّ أوّلاً فيما ورد من المأثور عن السلف.

الرأي الأول: : أنّه كان قد سكن الأرض جنٌّ قبل الإنسان، فأفسدوا فيها وسفكوا الدماء، فقضى الله بأن يطردهم، ويخلقُ الإنسان، ويجعله خليفة لمن كانوا ساكنين في الأرض قبله.

فكلمة «خليفة» على هذا الرأي: «فَعِيلة» بمعنى «فاعلة» أي: هو يخلُف من سبقه.

الرأي الثاني: أنّ الإنسان من خصائصه أن يتناسل، فيخلُفَ بعضُه بعضاً، وآدم الذي هو الإنسان الأوّل هو «خليفة» بمعنى مَخْلوفٍ من ذرّيته.

وصيغة «خليفة» على هذا الرأي: «فعيلة» بمعنى «مفعولة» أي مَخْلُوفَة. فهذا المخلوق الجديد سَتَخْلُفُه ذُريته

من بعده، وهذه الذّرية سَتَخْلُفها ذُرّيَّاتُها، كُلَّما مات قسمُ خلفه آخرون.

ومعلوم في العربية أنّ صيغة «فَعِيل» قد تأتي بمعنى اسم «الفاعل» وقد تأتي بمعنى اسم «المفعول» وقد تستعمل أحياناً فيهما معاً.

ويُطَابِقُ أحد هٰذين المعنيين أو كليهما ما جاء في النصوص القرآنية من لفظ «خليفة» مفرداً أو جمعاً، ومن الخير في البحث العلميّ سبْرُها وتدبُّرها. ويلاحَظُ فيها جميعها أنها تدور حول أنّ السلالات البشريّة يخلُفُ بعضُها بعضاً، خالفةً ومخلوفة، فالعنوان المناسب لهذا النوع الإنسانيّ هو لفظ (خليفة)، لأنّ الله عزّ وجلّ لم يخلق البشر كلهم دفعة واحدة في زمن واحد.

ونبدأ بتحليل النصّ الآنف الذكر الذي كان الخطأ في تفسيره هو المنطلق الذي أوصل إلى المقولة الباطلة «الإنسان خليفة عن الله في أرضه».

لقد قال الله عزّ وجلّ للملائكة حين أراد إظهار قضائه

وقدره في خلق هذا النوع، وهو الإنسان: ﴿إنّي جَاعل في الأرض خليفة﴾.

فسأل الملائكة ربَّهم: ما صِفَة هذا المخلوق؟ وما خصائصه؟

فأبانَ الله لهم صفاته، ومنها أنّه يكون ذا إرادةٍ حُرَّةٍ، وذا صفاتٍ نفسيّة يَنْتُجُ عنها الإفساد في الأرض وسفك الدّماء.

فقالوا: أتجعلُ فيها من يُفْسد فيها وَيَسْفك الدّماء، ونحن نُسَبّح بحمدك ونقدّس لك؟!

وقد طوى النصّ القرآنيّ كعادته في الإيجاز سؤالَ الملائكة عن صفات هذا المخلوق الجديد «الخليفة» وعن جوابهم، ولكن دلّ على المطويّ استشكالُهم، أو سؤالُهُمْ عن الحكمة، بقولهم: ﴿أَتَجْعَلُ فيها مَنْ يُفْسِدُ فيها وَيَسْفك الدِّمَاء؟﴾.

وغفل أهل التأويل عن هذا المحذوف، فذهبوا مذاهب شتّى في المراد من معنى الخليفة.

ولدى التأمّل في الرأي الثالث المأثور، والذي كان

منزع الخطأ الذي حدث عند المتأخرين، نلاحظ أنّه الرّأي الذي يُبَيّن أنّ في النصّ محذوفاً دلّ عليه سؤال الملائكة، وهو كما ذكره الطبري في تفسيره، قال:

«عن موسى بن هارون، قال: حدّثنا عمرو بن حمّاد، قال: حدّثنا أسباط عَنِ السُّدّيّ، في خبر ذكره عن أبي مالك، وعن أبي صالح، عن ابن عباس، وعن مُرّة عن ابن مسعود، عن ناسٍ من أصحاب النبيّ ﷺ، أنّ الله جَلَّ ثناؤه قال للملائكة: ﴿إِنّي جاعلٌ في الأرض خَلِيفَةً﴾ قالوا: ربّنا ، وما يكون ذلك الخليفة؟ قال: يكون له ذُرّية يُفْسدون في الأرض، ويَتَحاسدون، ويقتُل بعضهم بعضاً».

فكشف هذا القول الحوار المطويّ في النصّ القرآني، وهو المناسب تماماً لدلالته، إذْ لا يُعقَلُ أن يَفْتَئِتَ الملائكةُ على هذا المخلوق الجديد من عند أنفسهم وهم الذين قالوا في توابعه من سورة [البقرة/٢]:

﴿سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢)﴾.

ولكنّ الطبريّ علّق من عنده على هذا القول المأثور فقال ما يلي:

«فكان تأويل الآية على هذه الرواية التي ذكرناها عن ابن مسعود وابن عباس إنّي جاعل في الأرض خليفة مِنّي، يُخلفني في الحكم بَيْن خلقي، وذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه في طاعة الله، والحكم بالعدل بين خلقه»».

من الواضح أنّ هذا الفهم شيءٌ فهمه الطبريُّ من عند نفسه لهذه الرواية، مع أنّ الرواية لا تدلُّ على أنّه فهم لابن عباس أو لابْن مسعود، وهو لا يستقيم مع ما جاء في الرواية، لأنّ بداية الإعلام الرّبّاني للملائكة عن خلق آدم، قد كان بعبارة: ﴿إنّي جاعِلٌ في الأرض خليفة﴾ أي: هو وكُلُّ ذُرّيته «خليفة» لا أنّ آدم ومن كان على شاكلته هو الخليفة فقط، ليحكموا بين الآخرين الذين ليسوا هم خليفة، وأدرك الطبريّ أنّ الإنسان بوجه عام لا يصلُح أن يكون خليفة عن الله، فقصر الخليفة على آدم ومن كان على شاكلته، مخالفاً بذلك ما تدلّ عليه الرواية، من أنّ هذا المخلوق الجديد يخلُفُ بعضُه بعضاً في تتابع السلالات بدورة الحياة والموت بينها.

ثمّ أخذ بعضُ المفسّرين عن الطبريّ هذا الفهم، فذكروا أنَّ ابن عبّاس وابْنَ مسعود قد رُوِي عنهما أنّهما قالا بمضمونه، مع أنَّ الطبريّ إنما ذكره استنباطاً وفهماً من عند نفسه، ولم يُسْنِدْهُ إليهما في رواية صريحة الدلالة.

والذي يُفْهَمُ من الرِّواية أنّها حلّت إشكالاً فقط، وهو: كيف عرفت الملائكة أنَّ هذا المخلوق الجديد الذي أخبرهم الله به، سيكون منه إفسادٌ في الأرض وسفكٌ للدِّماء. ودلّت على أنّهم سألوا ربّهم سؤال الباحث عن الحكمة، إذْ قالوا: «رَبَّنَا وَمَا يَكُونُ ذلك الخليفة» أي: أيُّ كائن يكون ذلك الخليفة؟ فما هي صفاته؟ وما هي خصائصه؟

فما أجابهم الرّبّ عزّ وجل بأنه مخلوق يكون له ذُرِّيَّة يُفسدون في الأرض، ويتحاسدون، ويقتل بعضهم بعضاً، قالوا: أتجعل فيها من يُفْسد فيها ويَسْفِكُ الدِّمَاءَ، ونَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟.

وعلى هذا يظَلُّ تحديد معنى «الخليفة» متردّداً بين الرأيين المأثورين:

الأول: أن يكون خليفة لمن سكن الأرض قبله.

الثاني: أن يكون متناسلاً يخلُف اللاّحق السابق إذا مات، فيكون النوع خالفاً مخلوفاً، ويجمعُهُمَا «خليفة» بمعنى اسم «الفاعل» وبمعنى اسم «المفعول».

ثمّ جاء الشيخ رشيد رضا في تفسير المنار، معبّراً عن رأي شيخه الشيخ محمد عبده، فوسّع الدائرة، وزحف زحفاً تعميمياً في التأويل، فرأى أنّ الإنسان كلّه خليفةٌ عن الله في الأرض، وفيما يلي نصّ كلامه:

«هذا هو المذهب الأوّل في تفسير الخليفة (أي: القول بأنّ الإنسان خليفةٌ لساكن في الأرض قبله) وذهب آخرون إلى أنَّ المراد: إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة عنّي، ولهذا شاع أنّ الإنسان خليفة الله في أرضه. وقال تعالى: ﴿يَا دَاوُد إنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً في الأَرضِ[1]﴾ والظاهر ـ والله أعلم ـ أنّ المراد بالخليفة آدم ومجموع ذُرّيته، ولكن ما معنى هذه الخلافة؟ وما المراد من هذا الاستخلاف؟ هل هو

---

(١) سورة (ص/٣٨) آية (٢٦).

استخلاف بعض الإنسان على بعض؟ أم استخلاف البعض على غيره؟.

جرت سنّة الله في خلقه بأن تُعلَّم أحكامه للنّاس وتنفّذ فيهم على ألسنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه في ذلك، وكما أنّ الإنسان أظهر أحكام الله وسننه الوضعية (أي: الشرعية لأنّ الشرع وضع إلٓهي) كذلك أظهر حكمه وسننه الخلقية الطبيعيّة، فيصحّ أن يكون معنى الخلافة عامّاً في كلّ ما ميَّز الله به الإنسان على سائر المخلوقات، نطق الوحي، ودلّ العيان والاختبار على أنّ الله تعالى خلق العالم أنواعاً مختلفة، وخصّ كلّ نوع غير نوع الإنسان بشيءٍ محدودٍ مُعَيّن لا يتعدّاه، فأمّا ما لا نعرفه إلاّ من طريق الوحي كالملائكة، فقد ورد فيها من الآيات والأحاديث ما يدلّ على أنّ وظائفه محدودة...».

ثمّ بسط فكرة كون الإنسان خليفة عن الله في أرضه، مستدلاً بواقع حال الإنسان الذي استطاع أن يتصرّف بالمسخَّرات، ويخترع ويبتكر.

فهل في هذا الذي ذكره الشيخ رشيد رضا ما يَسْمَحُ لنا بأن نعتبر الإنسان خليفة عن الله في أرضه، بعد ما عرفنا من تحليل عناصر الخلافة كما سبق بيانه.

ثم اعتبر الأستاذ المودودي فكرة أنّ الإنسان خليفة عن الله في أرضه إحدى المباديء في الفكر الديني.

وانساق الشهيد «سيد قطب» فأطلق الفكرة بعبارة «خليفة الله في أرضه» ولم يقل: خليفة عن الله في أرضه، وفي تعبيره احتراز ذكيّ.

إنّ إطلاق هذه المقولة الباطلة: «الإنسان خليفة عن الله في أرضه» يبدو أمراً مخيفاً حينما نُلاحظ أنّ الموضوع له مساس بخصائص الرّبّ الخالق الآمر الحاكم المهيمن على كلّ ذرّةٍ في الوجود، وكلّ حركة وسكنةٍ فيه، ويتعلّق بصفاته عزّ وجلّ، فمثل هذا لا يجوز إثباته إلّا بدليل قاطع عن الشارع.

وما دام النّص متردّداً بين عدد من الاحتمالات، فالواجب يُحتّم استبعاد ما تقضي المفاهيم الدينيّة العامّة باستبعاده منها.

إنّ الملائكة لا يمكن أن يكونوا قد فهموا من قول الله تعالى لهم: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ أنّ هذا المخلوق الجديد سيكون خليفة عن الله، ثمّ يقولوا لربّهم ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ لأنّهم يعلمون أنّ الله تبارك وتعالى عليم حكيم، فهو سبحانه لا يختار خليفة عنه على أيّ مستوى من مستويات الاستخلاف إلاّ من هو أهلٌ لهذه الخلافة.

إنّه لأمْرٌ مستنكَرٌ جدّاً أنْ يقول لهم: سأجعل خليفةً عنّي فيقولوا له: أتجعل فيها منْ يُفْسِد فيها ويَسْفِك الدِّماء؟!

أليس هذا الربط ربطاً مستنكراً مرفوضاً بالبداهة؟! هلْ من صفات الْمُسْتَخْلِفِ مثلُ هذا؟!

تعالى الله عن ذلك علُوّاً كبيراً.

أمّاسائر النصوص فنتدبَّرُها بحسب ترتيب نزولها فيما يلي:

النصّ الأول

في سورة [ص/٣٨ مصحف/٣٨ نزول] يقصّ الله علينا قسماً من قصّة داود عليه السلام، وفيها بيان تسخير الجبال يسبّحن معه، وتسخير الطير كذلك، وإيتائه الحكمة وفصل الخطاب، وتقوية ملكه، والإشارة إلى فتنته، واستغفاره وتوبته، ثُمّ قال الله له:

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ. إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ (٢٦)﴾.

فأبانَ الله لداود أنّه قد جعله مَلِكاً ذا سلطان، خليفةً في الأرض لِمَلِكٍ سابقٍ هو طالوت كما جاء في سورة [البقرة ٢] في الآيتين، (٢٥٠ ـ ٢٥١) وأمره أن يحكم بين الناس بالحقّ في هذا الْمُلْكِ الذي آتاه إيّاه، ونهاه عن اتّباع الهوى.

وكان مُلْك داوُد ومُلْك ابنِه سليمان من بعده مؤيَّدَيْن

بمعوناتٍ رِبْانيَة غيبيّة، زائدة على نظام الأسباب المعتادة في سُنَنِ الله للنّاسِ أجمعين.

فمعنى جَعْلِ دَاود خليفةً هنا هو أنّه خليفةً لملك قبله، ثمّ هو مخلوفٌ من غيره بعد انتهاء أجل استخلافه، وقد خَلَفَه ابْنُه سليمان.

والسُّلطان المؤيّد بالمعونات الرّبّانيّة الغيبيّة الزائدة على سنن الأسباب والمسبّبات المعتادة، هو خليفةٌ خالفٌ لمن سبقه، مخلوف ممن يأتي بعده، استخلفه الله استخلافاً مُعاناً، لإقامة العدل والقسطاس المستقيم والحكم بما أنزل الله.

وهو الخليفة الذي أشار الرسول ﷺ إليه بقوله فيما روى البخاريُّ عن أبي سعيد:

«مَا بَعَثَ اللهُ مِنْ نَبِيّ، ولا اسْتَخْلَفَ مِنْ خَلِيفَةٍ، إلاّ كانت لَهُ بِطَانَتَانِ: بِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بِالْمَعْرُوفِ وَتَحُضُّهُ عَلَيهِ، وَبِطَانَةٌ تَأْمُرُهُ بالشَّرِ وتَحُضُّهُ عَلَيْهِ، والْمَعْصُومُ مَنْ عَصَمَهُ الله».

وقد اختار الرسول لِلّذِين يَتولّوْنَ السُّلطان الأعظم من بعده اسم «الخلفاء» واحدهم خليفة.

فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:

«كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيل تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي، سَيَكُونُ بَعْدِي خُلَفَاءُ فَيَكْثُرُون».

قالوا: فما تأمُرنا؟ قال:

«أوْفُوا بِبَيْعَةِ الأَوّلِ، ثُمَّ أَعْطُوهم حَقَّهم، وَاسْأَلُوا الله الَّذِي لَكُمْ فَإِنَّ الله سَائِلُهُمْ عَمَّا اسْتَرْعَاهم».

وروى مسلم عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِذَا بُويِعَ لِخَلِيفَتَيْنِ فَاقْتُلُوا الآخَرَ مِنْهُمَا».

والخلافة المعانة بالمعونات الغيبيّة الخاصّة، غير الملك العامّ الذي يؤتيه الله من يشاء، وينزعه ممَّنْ يَشاء، ومشيئتُهُ سبحانه تَتْبَعُ حكمته وعِلْمَه بخلقه، ومن حكمته تأديبُ الفاسقين الفاجرين بالملوك الطغاة الظالمين

الجائرين، ومعاقبتُهم بهم.

وفي الْمُلْكِ العامّ يقول الله عزّ وجل في سورة [آل عمران/ ٣ مصحف/٨٩ نزول].

﴿قُلِ : اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦)﴾.

والاستخلاف المعان بالمعونات الغيبيّة الرّبّانية الخاصة، كما يكون للخلفاء ذوي السلطان، المؤيّدين بنفحات الغيب، ومعونات الله، يكون أيضاً للأمم المؤمنة إذا استقامت على منهج، فيجعل الله لهم السلطان في الأرض، ويجعل منهم الخلفاء، كما سيأتي إن شاء الله بيانه في بعض النصوص.

النصّ الثاني:

في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] يعرض الله عزّ وجلّ لقطاتٍ من قصة «هودٍ» عليه السلام وقومه عاد، ومنها قوله لهم:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩)﴾.

خُلَفَاء: جمع خَلِيف. وقال سيبويه: جمع خليفة، كسَّروه تكسيرَ «فَعِيل» لأنّه لا يكون إلاّ للمذكّر، وقال غيرُه: «فَعِيلة» بالهاء لا يُجْمَعُ عَلَىٰ فُعَلاء. (لسان العرب).

والمعنى: واذكروا إذْ جعلكم الله خُلفاءَ في الأرض من بعد انقراض عصر نوح وملحقاته، ، خَلَفْتُمْ في سكنى الأرض قَوْمَ نوح الذين أغرقهم الله.

النصّ الثالث

في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] أيضاً يَعْرِض الله عزّ وجلّ لقطاتٍ من قصّة صالحٍ عليه السلام وقومه ثمود، ومنها قوله لَهُمْ:

﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتاً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ (٧٤)﴾

والمعنى: واذْكروا إذْ جعلكم الله خلفاء في الأرض من بعد إهلاك عادٍ، فخلفتموهم في سكنى الأرض.

النصّ الرابع

في سورة [الأعراف/٧ مصحف/٣٩ نزول] أيضاً يعرض الله عزّ وجلّ لقطاتٍ من قصة موسى عليه السلام وقومه، ومنها قوله عليه السلام لقومه من بني إسرائيل الذين آمنوا به واتّبعوه، جواباً لقولهم له: ﴿أُوذِينَا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾.

﴿قَالَ: عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩)﴾.

والمعنى: عسَى رَبّكم أن يُهْلِكَ عُدُوّكم، وَهُوَ فِرْعَون وَجُنُودُهُ، ووثنِيُّو الأَرْضِ المقدّسة، ويجعلَكُمْ خَلفاءَ ذوي السلطان في الأرض المقدّسة من بعد إهلاكهم، وقد تحقّق ذلك فيما بَعْدُ.

النص الخامس

في سورة [فاطر/٣٥مصحف/٤٣ نزول] يخاطب الله النّاس مع تخصيص الذين كفروا بثقل الخطاب:

﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلاَّ مَقْتاً وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلاَّ خَسَاراً (٣٩)﴾.

خَلائِف: جمع «خَليفَة». ففي هذه الآية يُبيّن الله عزّ وجلّ أنّ الناس في الأرض خلائف، أي: يتعاقبون عليها، فيخْلُفُ بعضُهُمْ بعضاً، وكلُّ خَلَفٍ فيها سيصير سَلَفاً، وكُلُّ سَلَفٍ قد جاء بعده خلَفٌ، حتى يَرِثَ اللهُ الأرض ومَنْ عليها.

فلفظة «خليفة» وجمعه «خلائف» هنا مستعمل بمعنى اسم الفاعل «خالف» وبمعنى اسم المفعول «مخلوف»، والجميع خالفون ومخلوفون بعضهم من بعض، فمن الدّقة في الأداء البياني إعطاء هذا النوع الإنساني اسم «خليفة».

النصّ السادس

في سورة [النمل/٢٧ مصحف/٤٨ نزول] يُعلّم الله رسوله وكلّ داعٍ إلى سبيل الله من بعده، طائفةً من الأدلة التي هي آيات ربوبيّته الواحدة في كونه، الدّالة على أنّه هو

وحده الإلّه الـذي يجب أن يعبده ذوو الإرادات الحـرّة المستجمعون شروط أهلية التكليف.

وضمن عرض هذه الطائفة من الأدلّة، أطمع الله المدعوّين إلى الإيمان بمحمّد واتّباعه، وفي الصفّ الأول منهم العربُ الذين كانوا أوّل الّذين تبلّغوا دعوته، إطماعاً بأسلوب التلويح لا التصريح، بأن يجعلهم خلفاء الأرض، أي: أصحاب الحكم والسلطان فيها، خلفاً لذوي السلطان والحكم القائمين، إذا آمنوا برسول الله محمّد ﷺ، واتّبعوه، وعملوا بما أنزل الله عليه، فقال الله عزّ وجلّ:

﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ؟ قَلِيلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢)﴾.

وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الأَرْضِ: أي: ويجعلكم أصحاب الحكم والسلطان فيها خلفاً لحكّامها وسلاطينها القائمين، إذا آمنتم واتّبعتم بإحسان رسول ربكم محمّد، وعملتم بما أنزل إليه.

وغفل المشركون عن إدراك هذا التلويح بالمطمع العظيم، أو لم يؤمنوا بصدق الرسول، حتى يكون لهم مطمع بأمر عظيم كهذا، وهو لا يتحقّق لهم إلاّ بقوّة غيبيّة خارقة.

النص السابع

في سورة [يونس/ ١٠ مصحف/ ٥١ نزول] خاطب الله عزّ وجلّ الذين كذبوا رسول الله محمداً ﷺ بقوله:

﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِم لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٤)﴾.

أي: ثُمَّ بعد إهلاك القرون الذين ظلموا من قبلكم جعلناكم خَلائف في الأرض من بعدهم، خلَفْتُم فيها من سبقكم، ويخلُفُ فيها بعضكم بعضاً.

النص الثامن

في سورة [يونس/١٠ مصحف /٥١ نزول] أيضاً أبان الله عزّ وجلّ أنه جعل نوحاً والذين نَجَوْا فِي الفلْكِ خلائِفَ خلفوا الذين أهلكَهم الله بالإغراق، ويخلفُ بعضُهم بعضاً، يموتُ سَلَفٌ ويخلفهم خلفٌ من سلالاتهم، فقال تعالى في معرض الحديث عن نوحٍ وقومه:

﴿فَكَذَّبُوهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلَائِفَ وأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَانْظُر كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنْذَرِينَ (٧٣)﴾

النصّ التاسع

في سورة [هود/ ١١ مصحف/٥٢ نزول] أبان الله عزّ وجلّ أنّ هوداً عليه السلام هدّد قومه عاداً بأنهم إذا تولَّوْا أهلكهم الله واستخلَف غَيْرَهُمْ، فجعلهم خلفاء لهم في سكنى الأرض التي هم فيها يرتعون، فقال تعالى في بيان بعض مقالات هودٍ لقومه:

﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّونَهُ شَيْئاً إِنَّ رَبِّي عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٥٧)﴾.

أي: ويُهْلِكُكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ قَوْماً غيركم، فيجعلُهم خلفاء لكم، ولا تضرُّونه بشيءٍ في كفركم وتولُّيكم، ورفضكم لطاعته والإيمان برسوله واستكباركم عن اتباعه.

النصّ العاشر

في سورة [الأنعام/٦ مصحف/٥٥ نزول] خاطب الله كلّ المدعوّين إلى الإيمان بالرسول محمد وبما جاء به، بقوله عزّ وجلّ:

﴿إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ (١٣٣)﴾.

أي: ويجعل ما يشاء من ساكنات في الأرض خلائف لكم يخلفونكم في سكناها.

النصّ الحادي عشر

في سورة [الأنعام/ ٦ مصحف/٥٥ نزول] أيضاً علّم الله رسولَه محمّداً لوناً من ألوان مُحَاجة مشركي قومه لإقناعهم بالحقّ، وجاء في عناصر هذا التعليم قول الله عز وجل:

﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٥)﴾.

النصّ الثاني عشر

في سورة [الحديد/٥٧ مصحف/٩٤ نزول) قال الله عزّ وجلّ بشأن استخلاف الناس في الأموال، الذي هو جزء من استخلافهم في الأرض، إذْ ملّكَهُمْ أموالاً كانت تملكها أسلافهم:

﴿آمِنُوا باللهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلِفِينَ فيه فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ (٧)﴾.

وقد سَبق بيان المراد من هذا النصّ في الاستخلاف في المال، وأنه مشمول بمعنى الاسْتِخلاف العامّ.

النصّ الثالث عشر

في سورة [النور/ ٢٤ مصحف/ ١٠٢ نزول] وَعَدَ اللهُ الذين آمنوا أن يستخلفهم بالحكم والسلطان في الأرض، فيجعلهم خَلَفاً لحكّامها وسلاطينها وملوكها، ذوي القوى العسكرية التي لا تدانيها قُوى الذي آمنوا، وما كان تلويحاً ضمنيّاً في العهد المكي، وهو الذي جاء في سورة النمل، جاء هنا في سورة (النور) المدنيّة وعداً صريحاً، فقال الله عزّ وجلّ فيها:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ آمْنَاً يَعْبُدُونَنِي لاَ يُشْرِكُون بِي شَيْئاً وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاَةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٥٦) لاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَلَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٥٧)﴾

ولمّا كان هذا الوعْدُ وَعْدَ استخلاف بالحكم والسلطان في الأرض، خَلَفاً لِحُكّامها وملوكها وسلاطينها، جاءت الإشارة إلى مَدَدِ المعونة الربّانيّة الزائدة على نظام سُنَنِ الأسْباب والمسبّبَات بقوله تعالى في هذا النصّ ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ﴾.

ولكن شروط هذا الاستخلاف الموعود به قد جاء في النصّ كما يلي:

١ - أن تكون الأمّة أمّةً مُؤْمِنَةً صادقةً في إيمانها: ﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا﴾.

٢ - أن يكون إيمانها مترجماً في الواقع بالأعمال الصالحة: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالحات﴾.

٣ - أن تَعْبُدَ الله وحده، ولا تُشْرِكَ بعبادَتِه أحداً: ﴿يَعْبُدونني لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئاً﴾ ومن الشرك الثقةُ بفاعليّة الأسباب، والغفلةُ عن مُسَبِّبِهَا الذي سَتَر بها أعماله وأفعاله سبحانه وتعالى.

٤ - أنْ تُقيم الصلاة ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ﴾.

٥ - أن تُؤتى الزكاة ﴿وَآتُوا الزَّكَاة﴾.

٦ - أن تُطيعَ الرّسول في كلّ أوامره ونواهيه التشريعيّة، والقياديّة، السياسيّة والعسكريّة وغير ذلك: ﴿وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.

(٩)

ما قرّره الإمام ابْنُ تيميّة حول هذه المقولة

لقد ذكر الإمام ابن تيمية أنّه لا يصلحُ أن يقال: إنّ الله يستخلف أحداً عنه، وأنّ قول الذين قالوا: «إنّ الإنسان خليفة الله» جهلٌ وضلال.

فمن أقواله في هذا الشأن ما يلي:

«والخليفة لا يكون خليفةً إلّا مع مغيب المستَخْلِفِ أو موته، فالنبيّ ﷺ إذا كان بالمدينة امتنع أن يكون له خليفة فيها، كما أنّ سائر من استخلفه النبي ﷺ لمّا رجع انقضت خلافته، وكذلك سائر وُلاة الأمور، إذا استخلَفَ أَحَدُهُمْ على مِصْرِهِ في مغيبه بطل استخلافه ذلك إذا حضر الْمُسْتَخْلِف.

ولهذا لا يصلُح أن يقال: إنّ الله يستخلف أحداً عنه، فإنّه حيٌّ قيّوم مدبّر لعباده، منزّه عن الموت، والنوم والغيبة، ولهذا لمَّا قالوا لأبي بكر - رضي الله عنه - يا خليفة الله، قال: لست خليفة الله، بل خليفة رسول الله، وحسبي ذلك.

والله تعالى يوصف بأنّه يخلُفُ العبْدُ، كما قال ﷺ: «اللَّهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل» وقال في حديث آخر: «والله خليفتي على كلّ مسلم».

وكلٌّ من وصفه الله بالخلافة في القرآن فهو خليفة عن مخلوق كان قبله كقوله: ﴿ثُمَّ جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم﴾. ﴿واذكروا إذْ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح﴾، ﴿وَعَدَ الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾. وكذلك قوله: ﴿إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة﴾ أي: عن خلقٍ كان في الأرض قبل ذلك، كما ذكره المفسّرون وغيرهم.

وأمّا ما يظنّه طائفة من الاتّحاديّة، وغَيْرِهم، أنّ الإنسان خليفة الله فهذا جهلٌ وضلال[1].

(١) انظر كتاب «منهاج السنة» للإمام ابن تيميّة ص ٩٤ - ٩٥ الجزء الرابع، نشر مكتبة الرياض الحديثة.

(١٠)

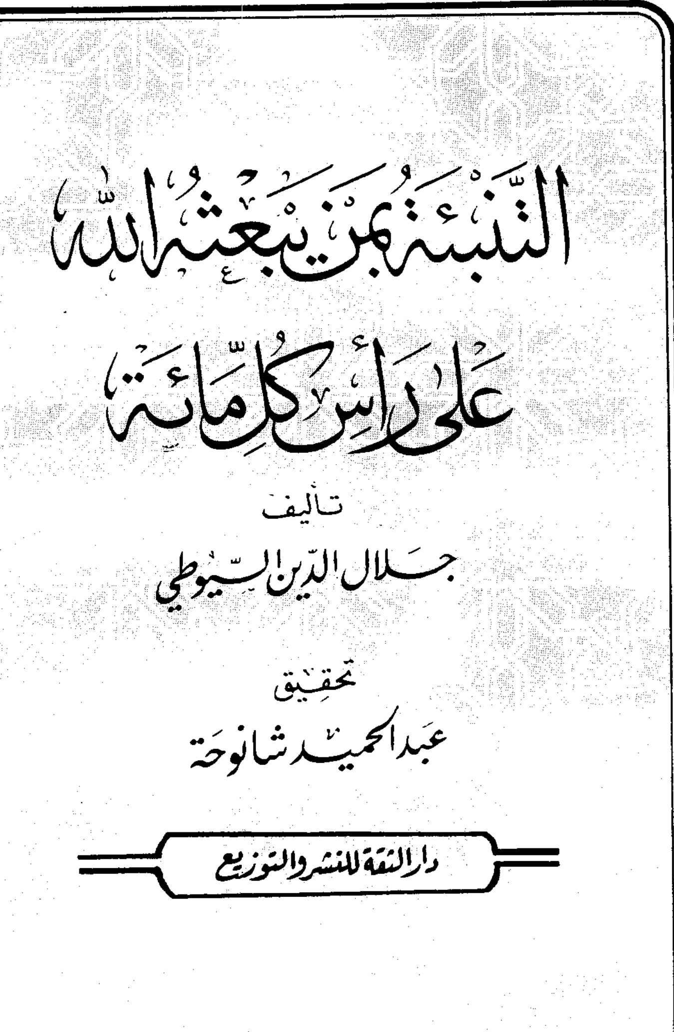
خاتمة

اللّهم أرنا الحقّ حقاً وارزقنا اتّباعه، وأرنا الباطل باطلًا وارزقنا اجتنابه.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد خاتم النبيين، وإمام المرسلين، وقائد الغرّ المحجلين، من أرسله الله رحمة للناس أجمعين، داعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً.

مكة المكرمة في غرّة ذي الحجة ١٤١٠ هجرية

عبد الرحمٰن حسن حبنكه الميداني.



التنبئة بمن يبعثه الله على رأس كل مائة

تأليف

جلال الدين السيوطي

تحقيق

عبد الحميد شانوحة

دار الثقافة للنشر والتوزيع



تأليف

ابن أبي الدنيا

تحقيق

عبد الحميد شانوحه

دار الثقة للنشر والتوزيع



تأليف الفقير الى الله

عبد الله بن جار الله بن ابراهيم الجار الله

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين

الطريق إلى السعادة الزوجية

«في ضوء الكتاب والسنة»

الجزء الأول

جمع وتحقيق

الفقير إلى الله تعالى

عبدالله بن جارالله بن إبراهيم الجار الله

غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين



مكتبة احياء التراث الإسلامي

لصاحبها: إبراهيم محمد الحلبي

المدينة المنورة - هاتف ٨٢٤٢٧٧٥

مكة المكرمة

ص. ب ٣٣٤٦٠ - الزاهر - ت ٥٤٤٥٩٨٤

العزيزية - مدخل الجامعة

تلفون: ٥٥٧٣٣١٠ - فاكس ٥٥٦٦٦٢٠

رسالة

إلى الأخوات المسلمات

جمع وتحقيق الفقيرين إلى الله تعالى

عبد الله بن جار الله بن ابراهيم الجار الله

و

رزق بن حمد المصري

غفر الله لهما ولوالديهما ولجميع المسلمين

فهـــرس